مدرسة الزهد في المدينة

وقد ظهر في هذه الحقبة من الزمن مدرسة المدينة ومدرستا البصرة والكوفة على التوالي. أما في «المدينة فقد كان الزهد الساذج الذي استمد مادته وقوته من القرآن والحديث مباشرة ، وكان النبي وصحابته المثال الذي احتذاه زهاد المسلمين. وظل الأمر على هذا النحو

حتى بعد أن انتقلت قاعدة الخلافة من المدينة إلى دمشق زمن الأمويين. فإن أتقياء المسلمين الذين كانوا على مذهب السلف ظلوا مستمسكين بسلفيتهم. وقاوموا كل أثر يأتيهم من قبل بني أمية. سياسيا كان أو غير سياسي. وأبرز دليل على ذلك أبو ذر الغفاري المتوفى سنة٣٢ه الذي قضى الشطر الأكبر الأكبر من حياته في مناهضة بني أمية وأساليب حياتهم وحكمهم. والسخط على أغنياء عصره. داعي ا إلى حياة اشتراكية عادلة في حدود الإسلام وتعاليمه. ومن كبار زهاد هذه المدرسة أيضا حذيفة بن اليمان الذي كان أول من تكلم في القلوب وآفاتها. ومنهم سلمان الفارسي. وعبد الله بن مسعود. والبراء بن مالك الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم. رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه به لو أقسم على الله لأبره. منهم البراء بن مالك. وفي المدينة نفسها ظهر من جيل التابعين سعيد بن جبير المتوفى سنة ٩٥ه وكان كأبي ذر الغفاري من أكبر المناوئين لبني أمية.

مدرسة الزهد في البصرة

كانت البصرة توأم الكوفة في التمصير وفي النازلة (السكان). وحتى في العناصر الفارسية التي شاركت العرب في الإقامة فيها. غير أن نسبة هؤلاء في البصرة كانت أكثر منها في الكوفة . وكما ورثت الكوفة الحيرة ورثت البصرة ميناء الأبلة القديم. وكانت البصرة على هذا الأساس ميناء تجتمع فيه الأجناس المختلفة وتختلط فيها الثقافات المتباينة ويظهر فيها الجديد من الأفكار والثقافات والميول قبل المراكز الداخلية من العراق . ومن هنا كانت البصرة تسمى أرض الهند تحديدا لاتصالها ، على الأشكال المختلفة. بهذا البلد . فإذا لاحظنا هذا كله أدركنا لماذا ظهرت الزندقة في البصرة وكذلك الفلسفة البحتة متمثلة في الكندي البصري وحركة إخوان الصفا وأكثر من هذا هو أن المعتزلة الأولين وحتى الخوارج كانوا من هذا المكان.

وقد كثرت المقارنات بين الكوفة والبصرة فأجمعت على أن الأولى أصيلة تصدر عن نفسها ويقل تأثير التيارات المختلفة فيها ، وأن الثانية تقبل التأثر وتصدر عنه ولا قبل لها بمقاومته. يضاف إلى هذا أن كثرة الأعاجم من سكان البصرة طبعت هذاالمصر الإسلامي بطبع مزجي يتبين فيه الفرق بينه وبين الأمصار الأخرى في وضوح وجلاء. وكذلك كانت البصرة أقل قلقا من الكوفة وأضعف . مشاركة في الأحداث السياسية وأكثر استقرارا وأقرب إلى التحضر والتأثر بالتقاليد المدنية ، ومن هنا قال أبو عمرو بن العلاء ، لنا دهاء الفرس وأحلامهم.

كان في البصرة ، كغيرها من مراكز الإسلام ، زهد إسلامي ينبع من طبيعة هذا الدين الذي تنعكس منه المثل الزهدية كما بنا غير سكان البصرة قد زادوا على الحد المعتاد هذا الزهد الممارستهم المجاهدات وتطبيقهم لتقاليد لم يألفها المجتمع الإسلامي. وفيها بنيت أول دويرة للصوفية .

ومن زهادها المعروفين الحسن بن يسار البصري الذي اشتهرت عنه بعض المواعظ والسلوك الصوفي المشبع بالحزن والخوف. وقد وصف بالحساسية الشديدة من الظروف التي كانت البصرة تمر بها فوصف بالخوف الشديد حتى قيل فيه ، إنه إذا أقبل فكأنما أقبل من دفن حميمه وإذا جلس فكأنه أسير قد أمر بضرب عنقه ، وكان إذا ذكرت النار عنده فكأنها لم تخلق إلا له . وروي أنه قيل في مجلس إن رجلا يخرج من النار بعد ألف عام. فقال ، ليتني ذلك الرجل. وقد عبر الحسن البصري عن حزنه بقوله، طول الحزن في الدنيا تلقيح العمل الصالح. ومن أقواله في الحزن، يحق لمن يعلم أن الموت مورده والساعة موعده، وأن القيام بين يدي الله تعالى مشهده، أن يطول حزنه. وقال، «لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا حزن وذبل وإلا ذاب وإلا تعب.

وهكذا ذكر في عبد الواحد بن زيد ، أشهر الوعاظ في البصرة، الذي قيل فيه ، «لو قسم بين (= حزن) عبد الواحد ابن زيد على أهل البصرة لوسعهم . وقيل في حسن قيامه لهمته هذه أنه قد تسبب في موت غير واحد من حضار مجلسه خوفا ورعبا من الصور التي كان يعرضها على الناس، ومن عبارات عبد الواحد بن زيد في هذا المجال ،

... يا إخوتاه ، ألا تبكون خوفا من النار؟ ألا إنه من بكى خوفا من النار أعاده الله منها يا إخوتاه ، ألا تبكون خوفا من شدة العطش يوم القيامة؟ يا إخوتاه ، ألا تبكون؟ فابكوا على الماء البارد أيام الدنيا لعله يسقيكموه في حظائر العرس مع خير الندماء والأصحاب من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك .. رفيقا

وتظهر في البصرة رابعة العدوية التي كان جنسها حاملا للمصنفين والباحثين على إبراز حبها الإلهي من بين زملائها ، ولم تكن وحيدة في هذا التوجه الروحي كما رأينا وينبغي في هذا المجال أن لا نهملها فنذكر لها نصوصا في الحب الإلهي كقولها ، «ما عبدته خوفا من ناره ولا طمعا في جنته فأكون كالأجير السوء ، عبدته حبا له وشوقا إليه ، وهي عبارة تتفق مع روح الزهد في البصرة وإن كان المصنفون نسبوها مرة إلى الامام علي بن أبي طالب، وأخرى إلى حفيده علي زين العابدين، وإن كانت في حقيقتها تعود القهقرى الى انتيجونس السوخي، أحد رؤساء الصادوقيين اليهود الذين ظهروا في القرن الثاني قبل الميلاد

ونختم القول على الحب الإلهي في البصرة بالأبيات السائرة التي تنسب إلى رابعة وهي:

أحبك حبين ، حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاكا

فما الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

وبهذا يتبين أن الحب الإلهي طابع زهدي خاص بالبصرة تسرب منها إلى التصوف بعد رسو أركانه في أواخر القرن الثالث الهجري وكان هذا اللون الزهدي نابعا من ظروف البصرة بالذات ولم يكن للمسلمين به عهد في بداية الدعوة على نحو واضح. والذي أصبح المهد للمرحلة التالية وهي التصوف بمعناه الحقيقي.

الزهد في الكوفة

مصرت الكوفة سنة ١٦ هـ / ٦٣٧م للهجرة بعد أن كانت معسكرا للجيش الإسلامي الفاتح. وكانت المكان الذي اختير لنزول القبائل التي سكنتها قريبا من موضع الحيرة عاصمة المناذرة ملوك الدولة العربية التي سبقت الإسلام في جنوبي العراق. وكانت محمية فارسية في مقابل دولة الغساسنة في الشام التي كانت محمية رومانية . وقد سكن الكوفة من العرب أغلبية يمانية وأقلية حجازية يضاف إليهما فريق من الفرس انضموا إلى الجيش العربي بعد القادسية ونزلوا المدينة الجديدة. ويبرز جملة من اعلام الزهد في الكوفة أمثال : الربيع بن خثيم الذي ورد عنه .... وسعيد بن جبير وهو أحد التابعين وقد استدعاه الحجاج بن يوسف وسأله عن الخلفاء فأجابه بما هو مسطور لكن قتله ظلما ومرقده في قضاء الحي بمحافظة واسط وهو معروف بعمله بحيث شهد له ابن حنبل بقوله : «.... < ومنهم جابر بن حيان وقد نقل عنه المعرفة بعلم الكيمياء وزهده قريب الى زهد الفلاسفة.

ويمكن أن نبوب الزهد الكوفي على الصور التالية :

١ـ كانت الكوفة أول مركز إسلامي يجتمع فيه الأنقياء على لبس الصوف بوصفه نسيجا يعكس الزهد ويؤكد تطبيقه وكان من الكوفيين أوائل المسلمين الذين حملوا لقب صوفي ، ومن أولئك جابر بن حيان. وكان من أولئك أيضا أبو هاشم الكوفي عثمان بن شريك الذي تعلم منه سفيان الثوري شيخ الزهاد الكوفيين «دقائق الرياء ، بالمعنى الصوفي الذي يتعمق عيوب النفس الإنسانية ويصلحها فكان رائدا للحارث بن أسد المحاسبي في تحليله النفسي الذي ضمنه كتابه «الرعاية الحقوق الله.

وكذلك كان عبدك الصوفي كوفيا سكن بغداد ودار حول اسمه هذا اللقب. وفي محاولة للوصول إلى ظروف انتشار لبس الصوف في الكوفة والتزام زهادها بلبسه ، يبدو أن الأصل في ذلك المعارضة الكوفية للدولة الأموية أيضا . وذلك أنه روي عن هشام بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك أنهما استحبا لرعيتهما في الأمصار الإسلامية أن يلبسوا الخز.

٢ـ برز في الزهد الكوفي مظهر لم نجده عند زهاد المسلمين الذين هذا الدين الزهدية من ذلك أن بعض زهاد الكوفة اعتزلوا الناس وانزووا في بيوتهم لا يخالطون أحدا ، وكان قائلهم يقول ، إذا ليم على ذلك : «ما رأيت أن أحدا يستوحش مع الله وبالغ بعض زهاد الكوفة في العزلة حتى اندفع فريق منهم إلى التعبد في المقابر هربا من عالم الأحياء الذي لم يؤد إلا إلى زيادة في القلق صدروا عن روح النفسي والخوف من عذاب الآخرة ..

٣ـ وكان النشاط العقلي في الكوفة ، وبخاصة ما يتصل بالحديث وجمعه ، والفقه والخوض فيه ، عند أبرز من عرف بهذين النشاطين مع الزهد ـ وهو سفيان الثوري ـ يقترن بملء الفراغ الفظيع وقطع

الطريق على إحساس الزاهد بوجوده الحافل بالعذاب وبغاياته الشخصية المستحيلة . وكان قائل هؤلاء يقول : إني لأذكر الشيء من أمر الدنيا الهي به نفسي عن ذكر الآخرة، أخاف على عقلي.

٤- ويكمل صورة الزهد الكوفي ظاهرة تعذيب النفس التي برزت في هذا المركز الإسلامي ، ومن هنا سمعنا من زهادها من يقول في التعبير عن شعوره بالإثم : قتلت قتيلا هي نفسي . وكان من متممات ذلك أن الزهاد في الكوفة كانوا يخشون من النوم لئلا تزعجهم الكوابيس المرعبة التي كانت تملأ يقظتهم ، ولهذا قال واحد منهم : اللهم اعفني من النوم باليسير . وكان سفيان الثوري ، في بيان منهجه في العبادة يقول : «لها (النفسي) عندي أول الليل نومة : تنام ما شاءت لا أمنعها ، فإذا استيقظت فلا أقيلها .

وتجسم هذا الرعب في ظاهرة غريبة بدأت أولا في الكوفة ثم صارت تقليدا اجتماعيا للعالم الإسلامي . ذلك أن زهاد الكوفة كانوا يتطلعون بأذهانهم إلى الآخرة ليعلموا من خبرها ما يطامن ويخفف من خوفهم ومن هنا كانوا يتطلعون إلى رؤية الصالحين من أمواتهم في منامات يسألونهم فيها عن مصائرهم . فوردت في أخبارهم جمل تعبر عن هذا المعنى أصدق تعبير .

فقد رأى رجل مرة بن شراحيل الهمداني - من زهاد الطبقة الأولى في الكوفة - في المنام ، بعد موته ، فسأله : «ما منزلتك في الآخرة؟ قال : خير منزلة : دار لا ينتقل عنها أهلها ولا يموتون . ورؤي زاهد آخر في المنام فكان جوابه عن هذا السؤال : (وإني وجدت الأمر أيسر مما تحسبون).

٥- وظاهرة مميزة أخرى من زهد الكوفة تتمثل في استحباب الزهاد هناك طول العذاب أثناء النزع ، وقد كان من تقاليد الزهد الكوفي أنهم، «كانوا يستحبون للمريض أن يجهد عند الموت. ولهذا لم يكن غريبا على سفيان الثوري أن يقول في نوع من الفخر والرضا:

(ما من موطن من المواطن أشد علي من سكرة الموت : أخاف أن يشدد علي فأسأل التخفيف فلا أجاب فأفتتن) . ومعنى هذه العبارة أن سفيان الثوري كان يعتبر تخفيف الله عذاب الإنسان عند سكرات الموت نوعا من عدم الرضا ومن سوء المنزلة عنده تعالى . وإذا قارنا هذا الكلام الصادر عن نفس محبة للعذاب بعبارة المعتزلي يقول فيها : اللهم إن كنت تعلم أني لم أقصر في نصرة توحيدك ، اللهم ولم أعتقد مذهبا إلا سنده التوحيد . إن كنت تعلم ذلك مني فاغفر ذنوبي وسهل علي سكرة الموت. قالوا : فمات من ساعته . فإذا قارنا بين العبارتين والنفسيتين ظهر لنا بوضوح عوامل البيئة التي أثرت في صور الزهد الكوفي وشكلته بهذه الأشكال القائمة المتشائمة . من هذا كله نخرج بالخلاصة التالية :

إن زهد الكوفة - وإن كان متصلا في منابعه بالنزعة الإسلامية الزهدية - تأثر بالأحداث التي جرت في هذا الجزء من العالم الإسلامي ، فانعكست منها أشكال جديدة لم يألفها المسلمون الأولون وتتمثل في لبس الصوف واستحباب العذاب عند الموت والانقطاع في المقابر والرعب الشديد من عذاب الآخرة.

ملاحظة: توجد مدارس زهد أخرى في بقاع مختلفة من العالم الاسلامي كمدرسة بغداد ومدرسة خراسان أو نيشابور ومدرسة مصر وشمال افريقيا إلا أننا رجحنا الاكتفاء بهذه النماذج الثلاثة لندرس المدارس الأخرى تحت عنوان التصوف في المحاضرات التالية.